وظيفة الفن في التعليم التربوي الموسيقى نموذجاً

م.م. عمار حليم حامد

مدرس تربية محافظة كركوك

ammarhalim.ir@gmail.com

الملخص:

إنَّ الخوف الشديد من دمج الفنون الموسيقية في التعليم التربوي وترك مفهومها ثابتاً كما ورثناه من مغالطات في الرؤية وإصدار الأحكام دون أُسِاس معرفي ونقد فني تربوي أفسح المجال لدخول أنواع أخرى من الثقافات حشَرتَ نفسها تحت مسميات "الفن والإبداع" التي تهدف إلى جعل إنسان اليوم مجرد سلعة تباع وتُشترى بداخل فضاءات لا تعترف سوى بالربح المادي وزرع المنافسة على التقليد الأعمى، مما أدى لصناعة جيل خالٍ من كل أنواع الحساسيات الجمالية في ممارسة فعل الدهشة فالتربية الموسيقية الثقافية تمكن المجتمعات ليس من فهم الفنون فقط بل تجعلهم يدركون القيم الإنسانية الكامنة وراء تسلسها التاريخي والثقافي كما تقوم بتحفيزهم على إنتاج محتويات ستسهم في التنمية البشرية وستعزز روح الخلق والإبداع، الذي سيعمل على نشر الثقافة الموسيقية وسط عالم اليوم ولم لا المساهمة في خلق اقتصاد إبداعي رأسماله إنسان مؤطر ثقافياً وفنياً وموسيقياً.

وقد كان أختيار الدراسة على نماذج من المؤلفات الموسيقة كون الموسيقى من أهم الفنون الانسانية التي تعبر عن ما يوجد في داخل الانسان حتى يمكن الاستفادة منها تربوياً وفكرياً وفنياً وعلاجياً .

الكلمات المفتاحية : (فن، ثقافة، موسيقى، تعليم).

The function of art in educational education, music as a model

Ammar Halim Hamid

Education teacher, Kirkuk Governorate

ammarhalim.ir@gmail.com

Abstract:

The extreme fear of integrating musical arts into educational education and leaving its concept fixed as we inherited from fallacies in vision and issuing judgments without a cognitive basis and educational artistic criticism has paved the way for the entry of other types of cultures that have crowded themselves under the names of "art and creativity" that aim to make today's human being a mere commodity that is bought and sold within

spaces that only recognize material profit and sow competition on blind imitation, which has led to the creation of a generation devoid of all types of aesthetic sensitivities in practicing the act of amazement. Cultural musical education enables societies not only to understand the arts, but also makes them realize the human values behind their historical and cultural sequence, as it motivates them to produce content that will contribute to human development and enhance the spirit of creation and creativity, which will work to spread musical culture in today's world and why not contribute to creating a creative economy whose capital is a culturally, artistically and musically framed human being.

The study was chosen on models of musical compositions because music is one of the most important human arts that expresses what is inside a person so that it can be used educationally, intellectually, artistically and therapeutically.

Keywords: (Art, Culture, Music, Education).

مقدمـة:

إنَّ الطريقة التي نحيا ونرى بها العالم يتكون جزؤها الأكبر من وعينا اللاواعي وما ترسب فيه من تراكمات متنوعة تصبح العين التي نرى ونحكم بها انطلاقاً من المعطيات الحياتية الماثلة أمامنا والخطير هو أن نتبنى مواقف دون وعينا بلا وعينا الذي ترسبت فيه أفكار جعلته مقيداً من حيث لا يشعر بحكم العادات الاجتماعية التي برمجته وفقاً لمورثات جاهزة وكأنها حقيقة مطلقة الشيء الذي أصبحت فيه الأحكام تطلق جزافاً دون أخضاعها للملكات النقدية والمعرفية.

فإذا كانت الموسيقى في المجال الفني والثقافي منبوذا وموطن للخطيئة لماذا في فيلم الرسالة وفي الابتهالات والموشحات الدينية يستمع لها أم إنها ليست موسيقى أم للضرورة احكاماً اخرى.

إذن كيف يمكننا إصلاح لاوعي المجتمعات والمنظومة التربوية منفصلة عن الفن والثقافة والموسيقى سنحاول في هذا البحث أن نبين واقع الفن داخل الثقافة الانسانية ودوره في التربية بالاعتماد الموسيقى نموذجاً.

يعتبر كل من الفن والثقافة ركائز اساسية للفرد والمجتمع والعالم ككل فهما تعبيران عن الوجود الانساني والانتماء أضافة إلى إنهما عناصر للرقي والإبداع فالفن والثقافة بجميع أشكالهما ضروريان داخل المجتمع ومتى ما كان صوتهما خافتاً كان المجتمع في وضعية هشة ومتى كان استثمارهما داخل فضاءات تنويرية وتربوية كان الحصاد مثمراً فهما ما يجعلان المجتمعات على ما هي عليه من ازدهار أو انحطاط.

وتُعد الموسيقى من الفنون التعبيرية التي رافقت الإنسان منذ فجر البشرية حيث كان مرتبطاً بالإنسان في مختلف مراحله وممارساته كان لغته الأولية وسلاحه في الحب والحرب وقبلة للتأمل والتعبد، كما وكانت وسيلة استكشافيه.

وقبل المرور إلى الموسيقى في بُعدها التربوي سنحاول أن نذكر بعض مراحله التاريخية وعلاقتها بالثقافة الإنسانية لكي نطلع على جزء بسيط من الأهداف التي كانت الموسيقى تحققها.

الموسيقى في بُعدها التاريخي :

إنَّ الإنسان القديم قد أهتدى إلى الإشارات والعلاقات في التعامل اليومي وفي أسلوب الحياة قبل اكتشاف اللغة التي من خلالها حاول محاكاة الطبيعة عبر حركاتها وأصواتها التي عبرت عن التحام الإنسان بالطبيعة وبغيره من الناس وصولاً إلى خلق فهم متبادل بين الإنسان والعالم وإيجاد أواصر وعلاقات مشتركة بينهما . لقد حاول الإنسان في بداية حياته أن يصف مغامراته ومشاعره ومعايشته وألمه وصراعه بالحركات من خلال الصوت والإيقاع وجاءت الحركة كوصف يلحق القول وبالفعل لإيقاظ الشعور لديه ولدى من يستمع إليه.

فالموسيقى بهذا هي من الفنون الرمزية القديمة وظاهرة ثقافية واجتماعية مارسها الإنسان قبل اختراع الكلام والكتابة وذلك للتواصل والتعبير والتنفيس والفرح والحزن والحرب والتعبد إلا أن رمزياته تختلف باختلاف العصور والأفراد والمجتمعات، بل حتى بإختلاف التطبيقات الرقمية الافتراضية الحديثة، بحسب طبيعة سياقه الذي يستقي من جذور تاريخية ، واوساط ثقافية وخلفية نفسية شعورية ولا شعورية.

إن الفن منذ أن عرفه الانسان (ما نقلته لنا الدراسات الإثنوغرافيا الإثنروبولوجيا) كان يمارسه ضمن طقوس مرتبط بالممارسة الاجتماعية الموسيقى كأول تعبير فني عرفه الإنسان كان بهدف إما طرد ((الأروح الشريرة)) أو كطقس للتقرب من الآلهة أثناء تقديم القرابين أو أثناء الاحتفال بغزارة الصيد أو بالمواسم الفلاحية المثمرة (في المجتمعات الزراعية) حيث تناولت هذا في رسالتي الماجستير الموسومة ((الخصائص الموسيقى لأغاني العمل في اربيل)) دراسة تحليلية ما ينطبق على الموسيقى ينطبق على كل التعبيرات الفنية سواء كانت شعرا أو نثرا أو حتى رسما كان الهدف دائماً توظيف هذا الفن ليقوم بوظيفة ما سواء كانت وظيفة دينية او اجتماعية فالإنسان كما يقول كلود ليفي ستراوس شكل الرموز بنفسه ولنفسه والفنون قادرة على حمل هذه الرموز والتواصل بها بين الأفراد والأجيال والجماعات[١].

فالموسيقى في ظهورها كانت لها أغراضاً عملية لكن بطريقة إبداعية استكشافية من خلاله استبصر الإنسان البدائي ذاته واكتشف محيطه وبه تواصل مع من يقاسمونه البيئة عن طريق رمزياته التي تعكس أحوالهم واحتياجاتهم وأغراضهم.

فقد كان دور الموسيقى كبير في خدمة الإنسان من خلال ممارساته للصيد والالتقاط في مراحله البدائية مروراً بالمعابد والأسواق إلى دخوله للمسارح عند الإغريق ليتطور مع تطور العصور فوظيفته خاضعة للتغيير بتغير الأنسان الرمزية والثقافية والتاريخية.

الموسيقى في بعدها الثقافي :

تعتبر الثقافة شكلاً من اشكال الوجود الإنساني وهي عبارة عن سلسلة من الإضافات يتنباها الفرد من أجل تحقيق انتمائه لبيئة لا يمكن أن يكون لوجوده خارجها أي ميزة فهي شكلها في التجلي وما نعنيه في سياقنا بالثقافة هي كل ما اكتسبته المجتمعات تلقائيا وعفويا وما ورثته من رأسمال كالحكايات والاحتفالات والطقوس الفكلورية التي تضفي عليها صبغة الهوية.

وتعد الموسيقى لغة تعبيرية مارستها المجتمعات منذ فجر البشرية لتعرب عن انفعالاتها وحاجاتها التعبدية والنفسية فتحول فيما بعد إلى طقس من الطقوس الفلكلورية يحكى ما خلفته الشعوب من أساطير وحكايات شعبية وما كونته من رأسمال ثقافي يظهر جلياً في التراث والموروث الموسيقى

فالموسيقى ساهمت في تشكيل ثقافة المجتمعات وفي نفس الوقت شكلته هي أيضاً بخصوصيتها وطابعها المنفرد.

ونجد أن كل مجتمع يستند على خصوصية ثقافية تستند هي الأخرى على خصوصية رمزية تتوارى خلف أشكال وممارسات لا يمكن أن تفهم خارجها فالمضامين الثقافية ككل واحدة لكن أشكال تجعلها تختلف ((والدليل في ذلك الاستعمالات الاستعمارية لموجودات الكون فالألوان واحدة في الطبيعة لكن دلالاتها تتنوع حسب الثقافات القمر هو القمر في سماء الناس اجمعين لكن دلالاته مستمدة من الثقافة لا من وجوده في السماوات العلا)) [٢] وذلك شأن نجده يشترك بين كل الثقافات لكن دلالته الرمزية مستمدة من مضافات تحتفي بها ذاكرة كل ثقافة عن غيرها ومن خلالها تمثل المجتمعات نفسها وتعبر عن تنوعها الثقافي وإبداعها الفني والجمالي.

وعلى سبيل الدراسة في هذا البحث سنحاول أن ندرج نماذج بعض المؤلفات الموسيقية التي بينت على عمقها الثقافي من خلال طابعها الأدائي وما تحمله من قيم تراثية تعكس وحدتها وهويتها.

نماذج من المؤلفات الموسيقية الثقافية :

١. **الرسالة** : هي أحد أعمال الموسيقية للموسيقار موريس جار ألفها عام ١٩٧٦ للفلم الرسالة الذي يؤرخ لحياة وزمان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

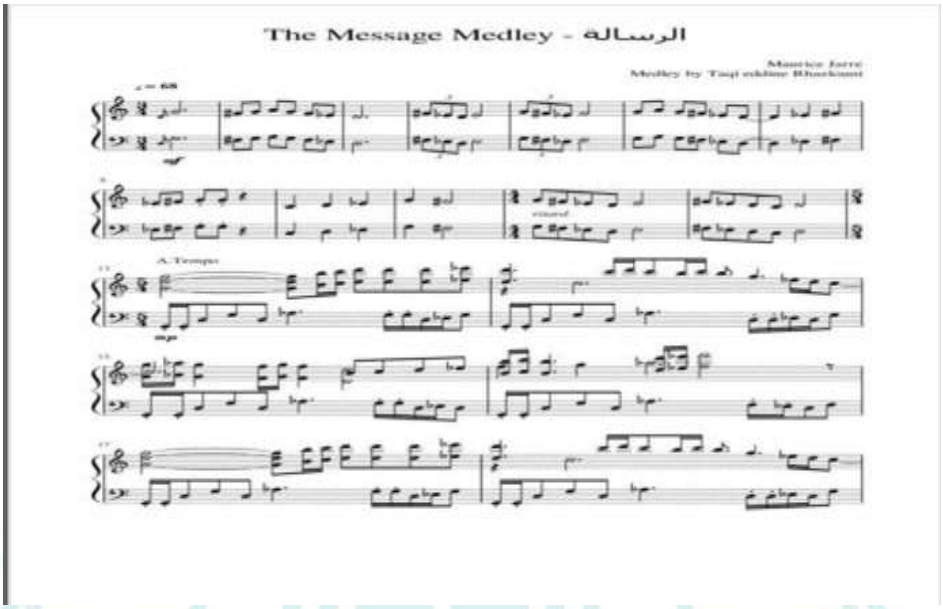

٢. **بحيرة البجع** : هي احدى الروائع الموسيقية للموسيقى الرومانتيكي الروسي بتشايكوفسكي والتي ألفها في الفترة من عام 1875 – 1876 وتضاف الى تراثه الموسيقي العالمي في الجمال النائم وتتضمن بحيرة البجع اربعة فصول استعراضية موسيقية راقصة في باليه درامي من اربعة فصول.

٢. **ضوء القمر** : هي سوناتة بيانو للموسيقى العالمي لودفيج فان بيتهوفن عام 1801 وتعد هذه المقطوعة الموسيقية احد اشهر أعمال بيتهوفن على البيانو.

٣. **الناي السحري** : هي اوبرا مكونة من فصلين الفها موزارت سنة 1791 وتعد اشهر الاعمال الاوبرالية الـ22 التي الفها موزارت (١٧٥٦-١٧٩١).

٤. **ليلة القبض على فاطمة :** هي موسيقى مؤلفة للفيلم المصري (ليلة القبض على فاطمة) من بطولة فاتن حمامه وشكري سرحان للمؤلف المصري المشهور الموسيقار عمر خيرت سنة 1984 .

٥. **رقصتي المفضلة** : هي احدى مؤلفات الموسيقار جميل بشير وتعتبر من الروائع التي أثري بها المكتبة العراقية والعربية في الموسيقى.

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن كل من هذه المؤلفات الموسيقية تنضوي تحت لواء الفن والثقافة وكل منها تحمل ظلاً خاصاً بها دون غيرها من التقاليد المنسوجة بتراث خلفته شعوبها إما من وحي تاريخي او اسطوري خيالي او فكري ...الخ.

كل حسب نوعيتها ومقامها الذي يختلف بين كل ثقافة وما تستودعه من أنماط رمزية من شكلها الموسيقي وشكلته هي أيضاً بغطائها ليتضح لنا أن الموسيقى واحدة عند كل الشعوب يعتبر سلوكاً إنسانياً.

وختاماً يمكننا القول بأن الموسيقى عنوان للثقافة والهوية والتاريخ نوتة متفردة، لوحة تشكيلة تهفو فيها الروح و وسيلة للتجلي بين أحضان الكون ، وسيلة للتنفيس من جبروت الألم والأنين الصامت وكل ما يعكر صفو الكيان...الخ . كلها وسائل تحتمي بغطاء يختلف باختلاف الثقافات.

الموسيقى في بعده التربوي :

تعتبر الموسيقى من الفنون التي لها مفاهيم تربوية تتجاوز ثنائية الترفيه والتسلية نحو أغراض مثمرة تتجلى في ثقافته المؤطرة له ومن خلالها نطلع على ما لنا وما للشعوب الأخرى من ثقافة وفكر وتاريخ وما لنا ولهم من إرث جمالي وفني.

إن صوت الفنون الشعبية داخل المجتمعات النامية خافت وخجول وذلك بسبب ظهور ثقافات رقمية ممنهجة فأضت كالسيل الجارف على جيل لا يملك أي مناعة ضد ما يستهلكه من خطابات تطمس الوعي وتغري على الاستهلاك المفرط والتقليد في هذا السياق لا يجب إقامة حدود فاصلة تقطع الفن عن انتمائه إلى حقل الثقافة الفكرية إذ يجب إدماج الفن في المدرسة بنفس الوتيرة التي تحارب بها الدول النامية أمية القراءة والكتابة لن ترقى المجتمعات إلا بالفن ولن تكون لها صحوة جمالية مع محيطها وبيئتها إلا بالتصالح مع الفن وذلك عن طريق إدماجه في المنظومة التربوية طبعاً. هذا لن يتأتى إلا بمجموعة من الشروط التي ستساهم في التنمية البشرية. كتغير للمناهج التربوية وتأسيس الشراكة بين القطاع الفني الثقافي والقطاع التربوي بناء على سياسيات مدروسة تحتاج لنفس طويل . وعلى الدولة أن تدخل في الخط وتجعل من بين اهتماماتها الكبرى القطاع التربوي الذي بدونه لا يمكن

ان نتقدم مثلنا مثل الدول التي تؤمن بأن الفن لا ينفصل عن العلوم الأخرى وإدماجهما معاً سيحقق الثروة الفكرية والإبداعية والاقتصادية. خاصة ونحن في عصر ما يعرف بالاقتصاد الإبداعي إنه عصر أستثمار الرأسمال الذي يقوم على الثقافة والفن والإنسان بينما نحن في سبات عميق هناك من الدول العربية كالإمارات العربية المتحدة التي تراجعت عن موقفها اتجاه الفنون وأعادت هيكلة منظومتها التربوية بإدماج الفن والثقافة داخل الفضاءات التربوية لأنها بكل بساطة الفضاء الوحيد الذي يصنع فيه الانسان بتربية فكرية وأخلاقية وجمالية وفنية ثقافية تحفز مخيلتهم على الابداع بمحتويات مبنية على أس معرفي في حين أننا تاركين المجال للمواقع المخربة لصناعة إنسان معطوب وجدانياً تستهويه التفاهة حتى تطمس على حساسياته الجمالية والإبداعية والمؤسف هو أنه من استطاب طعم التفاهة من الصعب إقناعه أنها كالموت البطيء تنخر عروق فكره وتورثه الهشاشة الوجدانية وتميع سلوكياته.

لهذا تبقى المدرسة هي المنقذ الوحيد لهذه المعضلة عن طريق ((انفتاحها على الثقافة وانفتاح الثقافة عليها إضافة إلى تجديد البيدواغوجيات لبناء شخصيات المتعلمين منذ الصغر وإعطاء معنى للتعلمات عن طريق فتح الأبواب للفن والثقافة بالدخول الى المدرسة))، كما الشأن بالنسبة للنظام التربوي الفرنسي وتجربته الجمالية القائمة على رهان ثلاثي للدراسات الفنية وتتمثل في :-

١. **دراسة الأعمال الفنية** : وذلك عن طريق تكوين معرفة مسبقة وثقافة تمهد للمتعلم طريق تذوق المعارف داخل سياقاتها .
٢. **الاحتكاك** : لعلاقة المباشرة مع الأعمال سواء عن طريق المعارض والفضاءات الفنية كالمسارح والسينما ودور الأوبرا والمتاحف أي الأحتكاك بأي فضاء قادر على جعل الاتصال حياً بالمجال الفني الثقافي والمرور بالتجربة الحسية لإدراك معنى ما تم اكتسابه نظرياً.
٣. **الممارسة** : فبعد دراسة الأعمال والاحتكاك بها يتربى لدى المتعلم انطباع حول ما تسرب إلى حواسه العقلية والوجدانية لينسج هو الآخر تجربته الفنية سواء على منوالها أو من خلال ما تمليه عليه مخيلته الإبداعية .

وهكذا نجد أن المنظومة التربوية الفرنسية تهدف في سياستها إلى تربية المتعلم تربية تدمج الجانب العقلي بالجانب الحي الوجداني تربية تساهم في بناء مواطن له نصيب من العلم والفن والثقافة إن لم يفلح علمياً لا شك أنه سيصيب فنياً وثقافياً سيكون قادراً على انخراطه داخل المجتمع وقادرا على التفاعل مع الفن والثقافة بنظرة نقدية لها معاييرها المعرفية التحفيزية لا الاحتقارية المبينة على الجهل إن المنظومة التربوية الفرنسية تراهن على المدرسة باعتبارها المكان الوحيد الذي يصنع فيه الإنسان والإنسان بدون فن شبيه إنسان وما أكثر ما يشبهنا إذا تجردنا من إنسانيتنا.

إن العالم اليوم في القرن الحادي والعشرون استطاع أن يستثمر مخزونه الفني والثقافي في مختلف المجالات التي تعود بالنفع على الإنسان في المجال الفكري والصحي والاقتصادي والسياسي والعلمي، نذكر على سبيل المثال ((فن الموسيقى هذا العنصر الذي نجده في ثقافتنا مرغوب سراً لكنه محظور جهراً)) لأننا لا زلنا عاجزين عن تخطي عنبة المفهوم وتمثله المغلوط حتى ضاعت قيمتهُ التربوية التي تبيح له الظهور بشموخ ثقافي وذلك راجع لافتقارنا لتربية ثقافية على الفنون عامة والموسيقى خاصة وهو ما يجعلنا كمجتمع نحكم على الأشياء بناء على ((الحلال والحرام)) متسترين على الضعف والخوف ليس بمنطق الحلال والحرام كما يشاع بل بمنطق الهشاشة الفكرية التي لا ترى في الفن سوى ما يحرك الغريزة الحيوانية.

لقد استطاع الفن أن يظهر ثقافتنا المتكلسة وهذا ما يستدعي ضرورة إدماجه داخل الحقل التربوي كحاجة ضرورية رغم هذا سيلاقي رفضاً وهجوماً من طرف الآباء كما الشأن بالنسبة لممارسة المسرح في إطار النشطة الموازنة للتلميذ والتي لم يكن ينظر إليها بعين الرضا لا من طرف المؤسسة التربوية ولا حتى من طرف الآباء والأولياء وذلك بالنظر إلى الأثار السلبية التي يكرسها مجتمع بكامله عن فن يعتقد انه لا يمارسه إلا عاطل أو منحرف أو تائه في دروب الحياة وبالتالي لا يليق بالصورة النمطية عن ((التلميذ المُجد)) الذي يقرأ دروسه ويحفظها جيداً ولا يخرج عن المسار المتواضع عليه : البيت / المدرسة/ البيت.

ويرجع هذا لأننا مجتمع ليست لديه تربية ثقافية على الموسيقى ولا يملك أي حساسية جمالية اتجاهه ولا يولي وجهه اتجاه قاعاته المقدسة ولا يشاهد مسرحية أو اوبرا إلا أكراهاً أو صدفة فطبيعي جداً أن

يحكم على من يزاوله بأحكام لا تقل جهلاً على من يزاول الموسيقى وما ينطبق على الموسيقى ينطبق كذلك على الفنون الأخرى من قبيل السينما والمتاحف ومختلف الفضاءات الثقافية بل وحتى الفن في الفضاء العام لا يتقبله المجتمع ويسعى لمحاربته إلى أن يزول لأننا كمتجمع وبكل بساطة اعتاد على ثقافة تزيين الفضاء العام بنفايات مزخرفة بألوان قذرة بل وحتى السلطات المحلية تسارع بالتدخل السريع نحو المطالبة برخصة لكل من سول له وجدانه تغيير المنظر بريشته الفنية والمفارقة الكبرى أنها لا تكلف نفسها عناء التدخل حين يقذف بكل أنواع التلوث البيئي هنا تصبح القضية قضية التساؤل حول موقع الفن والثقافة داخل المجتمع ويقول مالك بن نبي في هذا الصدد ((أن الفرد اذا ما فقد صلته بالمجال الحيوي قررنا أنه مات موتاً مادياً كذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتاً ثقافياً ، فالثقافة إذا ما رددنا الأمور إلى مستوى اجتماعي، هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعاً ميتاً)) [٣].

والفن الموسيقى بحمولته الثقافية سواء في الفضاءات الخارجية أو داخل الفضاءات التربوية قادر على تجسيد المعرفة في مختلف تنوعها لأن التعليم الفني سيتدخل بشكل من الأشكال في عملية التنشئة الاجتماعية التي تحدث سواء داخل المؤسسات التعليمية أو خارجها في الحياة اليومية . وهذا ما نهجته المدرسة الفرنسية في نموذجها التربوي حيث انطلقت من فكرة مفادها أن قضية الفن تأخذ منحاها من المجتمع والمجتمع لا يبلغ هداه إلا عن طريق ما تشربه من المدرسة لينعكس عليه في ممارساته الحياتية.

وكما رأينا سابقاً أنها أنساقت وراء مجموعة من الشروط والشراكات لتحقيق مبتغاه المنشود تحت شعار الفن والثقافة للجميع وعلى كل مواطن أن يستفيد من حقه في التعليم والثقافة والفن ((وإذا كانت المدرسة تأخذ على عاتقها إحدى الوظائف النبيلة والكبرى المتمثلة في تمكين الأطفال والمتمدرسين على حد سواء من الولوج للمعرفة دون ميز فإنها مجبرة وفق هذا المنطق على تخصيص مساحة للتربية الفنية الموسيقية بشتى أصنافها ضمن زمن التعلم والحياة المدرسية باعتبار المعارف المدرسية التي تروجها المواد الفنية هي جزء من المعرفة الإنسانية الشاملة)) غير ذلك هو كسر لوحدة المعرفة

استعمال سيء للمدرسة و لسلطتها التربوية والاجتماعية والثقافية أمام المعرفة ومس همجي بجوهرها وتماسكها وبالمحصلة هو حرمان ظالم للمتعلمين من حقهم الأساسي في التعلم غير القابل للتجزيء.

ويبقى السؤال المطروح هو في حالة ما اعيد النظر في وضعي الموسيقى والثقافة بصفة عامة دون إهمال أي عنصر فني ثقافي من إدماجه داخل البرامج التعليمية أي نموذج تربوي ستتبناه لأجراة هذه الرؤية الناجعة على سبيل الخيال فقط، لأن للواقع رأى آخر وربما تلزمنا سنوات ضوئية لتفعيل مدرسة تتماشى ومنطق الهندسة المدرسية الفرنسية وغيرها من الدول الغربية السائرة نحو التطور والتوسع في عهد جديد للتعليم.

وإذا أسقطنا التجربة التربوية الفرنسية للفن والثقافة على الموسيقى نموذجاً وكسبيل للدراسة ما الأهداف التربوية التي يمكن تحقيقها؟

الأهداف التربوية للموسيقى :

يعُرف الموسيقى داخل المجتمع بموقعه داخله ، ونجد موقعه يتمثل باعتباره وسيلة قد تنحو غالباً للتحقيرية والإساءة وعدم الاهتمام بمكوناته الثقافية والفنية وهذا كما قلنا سابقاً راجع لجهلنا لماهيته وراجع لحصره في نوع محدد حتى أمسى كل ما هو موسيقي لا يليق بالوقار والأخلاق هذا سبب رئيسي لضرورة إعادة الاعتبار الموسيقى كفن يحمل لواء الثقافة وهوية وتراث الشعوب وهذا النداء لن يتحقق إلا في المدرسة لنطلع على :

١. تاريخ الموسيقى وحكاياته واستعمالاته الاجتماعية المرتبطة بالوجود الانساني.
٢. فهم الموسيقى على رؤية جمالية تخدم الجانب الوجداني والعقلي وتعمق رؤيتنا للشرط الإنساني رؤية الفن والثقافة .
٣. تعلمنا النقد بمعايير تتكئ على معرفة وعلم.
٤. تعلمنا الاطلاع على ما للآخر من ثقافة والانفتاح على العالم في تنوعه وفي مختلف تجلياته ومحاولة لفهم ثقافة الآخر مع الاستفادة بما يليق وترك مالا يليق دون انصياع سلبي مبني على استهلاك ثقافة مستعارة مجهولة المعالم وغير مهضومة.

٥. التحفيز على الابداع الفني الموسيقي ومحاولة ابتكار مؤلفات تعبيرية ناطقة رمزياً كما الشأن بالنسبة للتحفيز على الكتابة.

للموسيقى في مجال التربوي أهداف كثيرة من شأنها أن تغير النظرة الاجتماعية السلبية له بنظرة ثقافية فنية وفكرية اذا ما تم تفعيله سواء بمنطق النموذج الفرنسي أو نموذج يكون له نتائج تربوية مرضية حيث من خلاله يمكن أن نكتسب :

تربية ثقافية :

إن الثقافة تعلمنا كيف ننتمي إليها كيف نمثل تعالميها فكلما تربينا على ثقافة معينة انعكست على سلوكياتنا وتصرفاتنا دون ان ندري بحكم العادة والتطبع بخصوصياتها التي تنمو تدريجياً إلى أن تصبح كما في المثل الشائع ((من شب على شيء شاب عليه)) فمن اعتاد على ثقافة أخذ السمكة دون مجهود اصطيادها سيظل أمد الدهر ماداً يده للأخذ ومن اعتاد على ثقافة شم وردة دون قطفها نبت في وجدانه مشتل الزهور ومن اعتاد ثقافة الارتياد على الفضاءات الفنية والثقافية شاب على تربية فنية ثقافية تؤهله لممارسة فن العيش وقلة قليلة من تنهج هذا السلوك الثقافي الذي ورثه إما من مؤسسة أسرته أو انخراطه في مؤسسات ثقافية توعوية بمعنى أنها غير متساوية بين المجتمع بكاملة.

إن عادات شعب ما محددة دائما من خلال أسلوب ما [٤] وبما أن المدرسة هي أكثر الأمكنة إقبالا من طرف المواطنين فاستثمار الثقافة الفنية ضمن مناهجها سيساهم بتربية كيان الأفراد و وزرع داخلهم ثقافة لا تقتصر على القراءة والحفظ فقط بل تشمل تربية على الفن والثقافة كتمثيل مهم لمفهومهما الاجتماعي من خلالهما يسمح لهم فهم المبادئ الاجتماعية العامة والأخلاقية كما يجب وذلك من خلال القدرة على الاستيعاب الجيد للشرط الاجتماعي للثقافة وثقافة الفن كمفاهيم ممنهجة وإزاحة الصدأ عن التمثيلات المغلوطة للفنون وعلى رأسها الموسيقى لأن المفهوم الخارجي لثقافته غير الممنهجة الشيء الذي يجعلها مرفوضة خارج إطارات لحظية معينة قابلة للزوال ، دون فهم البنى المرجعية التي ساهمت في ظهوره.

والتعليم المدرسي قادر على تجسيد المشهد الثقافي للموسيقى عن طريق استراتيجيات تهدف إلى دراسة الأعمال والتعرف على سياقاتها وتحليل مضامينها التعبيرية والمقارنة فيما بينهما بنظرة ثقافية قائمة على معرفة مختلف أنواع الموسيقى و((معاودة الإنتاج الثقافي)) من جديد على حد تعبير بير بورديو.

التربية الجمالية : كيف ندرك جمالية الموسيقى .

إن المواقف التي نتخذها اتجاه الأشياء هي التي تتحكم غالباً في إدراكنا لها فنحن لا نرى إلا ما يثير انتباهنا في حي أننا نغفل أو ندرك أشياء أخرى بشكل باهت دون وعي بها مع العلم أنها قد تكون أعلى شأناً من الأولى وهذا ينطبق على ما يحيط في بيئتنا من جماليات وفنون حيث إن إدراكها يستعصي على كل وجدان منخور لا يقوي على تذوقها والتفاعل معها بحكم الحاسة المستقبلة غير مروضة على اقتراف فعل النظرة الجمالية ولو سهواً وكما يقول الجاحظ ((إن أمر الحسن أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره)).

وهنا نستطيع أن ندرك مدى النقص الذي نعيشه اتجاه الحساسيات الجمالية التي تم تعويضها بحساسيات من طبيعة أخرى تحكمها الزر والكبسة والبذخ الإلكتروني الذي يقدم كل شيء بسخاء دفعة واحدة دون دهشة فمن الطبيعي أن يكون انتباهنا انتقائي وسلبي اتجاه المنبهات الجمالية المتواجدة في الفنون من قبيل اللوحات التشكيلية والموسيقى والمسرح وغيرها بل حتى الفن في الفضاءات العامة غالباً ما يتم استقباله بشكل سلبي أو كأشياء هامشية لا تثير دهشة حسية أو فكرية وذلك بحسب الموقف المتخذ اتجاهها.

إننا نتعايش مع ثقافة الموسيقى بهذا المبدأ اللامبالي بأعتباره شيئاً ثانونياً داخل المخيال* الاجتماعي يمارس ضمن لحظات احتفالية محددة قابلة للغفران فيما بعد وكأننا نتعامل مع المحظور في مجتمع علاقته مع الفن مغلوطة ومتناقضة مرغوبة للأستماع باللحظة ومحظورة داخل سياقات فكرية وتربوية الشيء الذي زاد من انتشار نوعية محددة من الموسيقى التي جئت على فن الموسيقى المؤطر بأصول فنية وجمالية ليطويها النسيان والتهميش.

إذا قارنا بين الانسان في الماضي وإنسان اليوم نجد أن الفئة الأولى كانت تمتاز بتربية جمالية دون أن تدري وذلك لاحتكاكها المباشر بالفضاءات الفنية كالفرجة والحلقة والمواسم الشعبية التي كانت تمزج بين الفنون عامة، كفن الفروسية والتبوريدة وفن الموسيقى والغناء بل وحتى فن النكتة والكوميديا كانت بأصولها ضمن سلسلة الفن والثقافة الشعبية والعديد من الطقوس التراثية التي كانت متطبعة في عمق الوجدان ببساطتها وألوانها الخفيفة على العين والثقيلة في ذاكرة الروح والشعور.

وفي مقابل إنسان اليوم نجده فارغاً من الدهشة الثقافية الفنية والجمالية حيث تلاشت مجموعة من الفنون الشعبية بحكم التهميش وخلع سلهام* الأجداد واستبداله بثوب مرقع بخيوط الحداثة والتجديد بل وأصبحت ثقافة الماضي رجعية مقارنة مع ثقافة التفاهة المغرية بألوان الزيف التي ساهمت في انتاج جيل معطوب من كل الجهات ولا يجيد سوى التقليد كالببغاء.

فضرورة إدماج التربية الجمالية في المدرسة ستعيد إحياء نبض الوجدان وترميم كسوره وإطعامه بخبرة جمالية ((سعى جون دوي إلى جعل الخبرة الجمالية أساساً للتربية ومعياراً للحرية وأن الخبرة لا تكتسب ولا تنتقل من مكان إلى مكان وهي ليست مرادفة للمعرفة أو المهارات وإنما الخبرة تعني موقفاً من المواقف يعيشه الفرد مع آخرين فيتأثر به ويؤثر فيه وهو يتعلم نتائج هذا الموقف حيث تصبح هذه النتائج هذا الموقف حيث تصبح هذه النتائج جزءاً من سلوكه اكانت معلومات أو مهارات أو اتجاهات)) [٥].

كما يرى أنها هي التي تضفي على الأفعال والأحاسيس والأفكار المبعثرة الوحدة والاتساق[٦] وهذا ما يؤكد أن اكتساب الخبرة الجمالية لا يتأتى إلا بالتجربة والممارسة التي تسبقها معرفة أنها من نتاج ما تكون من مواقف ومهارات مكتسبة تساهم في تنمية الإحساس تدريجياً وإثراء الفرد بقيم ترائه الفني الجمالي الموسيقي وتراث الثقافات الأخرى كما ستروضه على الانخراط في تجارب مباشرة والاحتكاك بها ليصبح قادرا على التميز بين الجميل والقبيح وقادر على التذوق الفني في عمقه التعبيري وتحفيز المخيلة على الابداع والخلق او النسج على غرار ما استفز إدراكه الحسي ليتحقق الشرط الانساني للفرد داخل منظومة التربية والتعليم والمجتمع والفن والثقافة بطريقة ديمقراطية ومتساوية بين الجميع ((يرى ديوي أيضاً أن الديمقراطية منهج وأسلوب للفكر والحياة فهي شيء اكثر من مجرد شكل من أشكال

الحكومة لأنها أسلوب في الحياة الاجتماعية وفي الخبرة الاجتماعية القابلة للانتقال واتساع المكان او الحيز الذي يشغله عدد الأفراد المشتركين في اهتمام واحد بحيث يرجع كل واحد منهم في فعله إلى أفعال الآخرين بحيث يتأمل كل واحد منهم فعل الآخرين ليوجه طبقاً لذلك فعله الخاص))[٧].

فدمقرطة* الأسلوب التربوي الجمالي على الجميع يؤهل لصنع مجتمع متطبع بمعالم النظرة الجمالية والطبع الجميل يجيد ممارسة الحياة والتفاعل معها كما سيسعى لمحاربة الفن الهابط الذي تشربته الأجيال من فرط فراغها وخواء ذاكرتها الوجدانية كما ستجعل الفرد الواحد قادر على التأثير في ابناء محيطه بطريقة إيجابية.

وبناءً على ما سبق يمكننا القول بأن فن الموسيقى لا يمكن التصالح معه وتغيير صورته النمطية إلا عن طريق تكوين خبرة جمالية بطرق توعوية تحسيسية ومحاولة تجسيد ظواهر يعيشها المجتمع لشد انتباه المتلقي وتغيير صورته السلبية وذلك للتمكن من إدماجه داخل الحقل التربوي، واستثمار جوانبه التربوية والجمالية والتي نجد من بينها :

١. القدرة على التصالح مع ذواتنا من خلال التجربة الواعية للموسيقي وتعلم أبجديات لغة الموسيقى.
٢. القدرة على فهم الموسيقى وتحليل سياقاتها التعبيرية.
٣. استثماره كوسيلة لتليين صعوبات إدراك التعلمات من خلال نوع الموسيقى كفهم الحساب وابجديات الفيزياء مثلا.
٤. القدرة على الابداع في مجال التذوق الموسيقي كترجمة قصة ما إلى موسيقى بأسلوب كل فرد.
٥. القدرة على التطهير وترويض الانفعالات السلبية داخل عروض مسرحية موسيقة.

التربية النقدية :

إن الأحكام التي نطلقها على الأعمال الفنية دون معايير تحتكم إلى قواعد تمنطقها وتميز جودتها من قبحها تؤدي إلى طمس روح العمل الفني وتجني عليه، ليصبح مفهومه متفقاً عليه داخل العقل الجمعي* للمجتمع ويحصل أن يعد من فصيلة الفنون مع العلمِ أنه قد يكون من الفنون الهابطة التي

يعتقد أنها فن كما اتفق عليها في المقابل يتم الحكم على الأعمال الرفيعة بأنها لا تليق لا بالذوق ولا بموجة الموضة المزيفة ليجرفها طوفان الجهل البين للنقد وهذا الأخير يقضي على الحاسة الجمالية للذوق الفكري والوجداني لتصبح غير ثابتة على حال تلتقد أكثر مما تتذوق وتتحدث دون أن تعقل.

فالفن والنقد تربية وتعود ومن أعتاد على الفن الهابط سينتقد بكل طلاقة وسماجة نفس لأن معرفته بالفنون تكاد تكون معرفة سطحية ليس في جعبتها أي خبرة ثقافية وجمالية وفكرية تؤهله لعملية النقد القائم على علم ودراية لا عن الجهل المنبط للرؤية .

وهذا ما ينطبق على الموسيقى اكثر الفنون عرضة للنقد الفاسد ذلك لأن وجوده داخل الفضاءات المعرفية والعلمية الأكاديمية مغيبة ويكاد وجوده يقتصر على المعاهد الموسيقة إضافة إلى انعدام الدراسات الفنية والعلمية والثقافية والنقدية داخل رفوف المكتبات العربية وفي الغالب تحمل دراسات أجنبية تعطي أهمية الموسيقى في جميع جوانبه تغوي فكر الباحث وتنسيه مرارة اقتصار رؤيتنا كمجتمع للموسيقى.

إذن فكيف يمكننا أن نرقى بثقافتنا لفن الموسيقى دون نقد بناء؟ وكيف يمكننا ممارسة النقد البناء دون معرفة المعايير التي تحتكم إليها عملية ممارسة نقد الأعمال الفنية التي تختلف طبيعتها من سياق لآخر؟ وما الأهداف التربوية النقدية التي يمكن للموسيقى تحقيقها؟ وكيف السبيل لتحقيق كل هذه الإشكاليات دون إدماج الثقافة والموسيقى والفن داخل المؤسسات التربوية؟

إن التربية الفنية تساهم في شحن خزينتنا المعرفية للثقافة والفنون كما تروضنا على تربية نقدية لتلك المعرفة من خلال دراستها في سياقاتها والاحتكاك بفضاءاتها ومحاولة المرور بالتجربة الجمالية وتفعيل ملكة الذوق كل هذه العناصر تساهم في تكوين رؤية معرفية تمزج بين الحس الفكري الجمالي والثقافي وتؤهل المتعلم على اكتساب ملكة النقد من خلال الملاحظة والتساؤل والمقارنة والاستنتاج ليستوعب العمل الفني من جميع زورياه دون الإغفال عن أي جانب وبهذه الطريقة يصبح المتعلم موجهاً إدراكه نحو ما تخفى وراء الشكل الظاهري وليس الشكل لخارجي فقط إن النقد بالقواعد يبدأ بتصنيف العمل إلى نمط معين وهذا وحده يمكن أن يكون تعليمياً من الوجهة الجمالية فوصف قصيدة بأنها

((غنائية)) أو رثائية يعطينا بالفعل إحساساً بمقصدها الجمالي ويساعدنا على تهيئة أنفسنا على النحو الملائم ونحن نبدأ بالقراءة فعندئذ نتوقع ((روحاً)) تعبيرية معينة وإذا كان العمل خاضعاً إلى حد بعيد للتقاليد السائدة فإننا نتمكن عندئذ من فهم مواضعاته الأسلوبية والشكلية وفضلاً عن ذلك فإن تطبيق القواعد على العمل يؤدي إلى إبراز التفاصيل الهامة فيه مما يترتب عليه أن يصبح إدراكنا أقدر على التمييز بعد ذلك فإن التقدير الذي ينجم عن الحكم بواسطة القواعد له نفس الوظيفة النقدية التي لكل تقدير ألا وهي أنه ينبئنا بنوع ودرجة القيمة التي يمكننا أن نتوقع الاهتداء إليها في العمل وهذا بدوره يؤثر في تهيؤنا الجمالي فالنقد بالقواعد ينبئنافي نفس الآنبما يكونه العمل وبما يستحقه العمل.

وإذا ما اسقطنا هذه الاحكام على فن الموسيقى فإن الأغراض التربوية للنقد تمكن في :

١. القدرة على تصنيف نوعيته الثقافية التعبيرية والمرور لعمليات أخرى تساعده على تنمية المهارة النقدية.
٢. القدرة على إدراك مغزى الموسيقي ولغتها الرمزية والتمييز بين الموسيقي في طبيعتها العادية .
٣. القدرة على التمييز بين الموسيقى في وظيفته العادية والموسيقى في وظيفته الفنية .
٤. القدرة على الانتباه .
٥. القدرة على تحليل مضامينها المفاهيمية والوقوف على مكامن الجمال والقبح أو القوة والضعف في الأداء ومحتوى المضمون.
٦. القدرة على التمييز بينها وبين موسيقى أخرى وتصنيفها ضمن إطارها المرجعي التاريخي ، الثقافي ، الفكري، والفني.
٧. القدرة على فهم المصطلحات الفنية والنقدية.

إن هذه الأغراض التربوية للنقد الفني (للموسيقى) تساهم في تطوير مهارات المتعلم على التفكير النقدي وعلى حسن الانتباه والملاحظة دون المرور على الاعمال الفنية مرور الكرام أو الحكم عليها سطحياً كما تعتبر بمثابة اختبار تقييمي لما تكون لدى المتعلم من قيم فنية وحس نقدي يحتكم إلى المعرفة السياقية والانطباعية حول العمل الفني.

إن التربية الفنية في مجملها هي عملية تشكيل السلوك الإنساني وتقويمه من اعوجاجه المتعطش للفن ونجد أن التربية والفن كلاهما يهدفان إلى أغراض تربوية كلاهما يلتقيان في خدمة الإنسان وتصالحه مع ذاته ومع الآخر بممارسات هادفة ويعتبر النقد داخل المجال التربوي الفني مختبر المعرفة الفنية الذي يعقلها ويرشدها لسبلها الصحيح عن طريق التحليل والمناقشات والاستنتاجات وفي الوقت نفسه يساهم تدريجياً في تكوين ثقافة نقدية لدى المتعلم من خلالها تنتفتح بصيرتهم على الرؤية الواضحة والتذوق الجمالي كما تحفزهم على خوض غمار التجربة ومحاولة عرضها للنقد ومعرفة مواطن القوة والضعف وهكذا تتكون لدى المتعلم تربية نقدية بناءة وموضوعية تحفزهم على تقبل أخطائهم وإصلاحها وفي نفس الوقت تشجعهم على الابتكار والإبداع في المجال الفني وتزرع فيهم بذرة حب استكشاف الفنون وتذوقها في مختلف تجليها.

ختاماً لما سبق يمكننا القول إن إدماج الثقافة والفن داخل المنظومة التربوية من المطالب التي يجب المطالبة بها والنضال من أجل تحقيقها لأن بناء الشخصية وصنع الإنسان لا يتحقق إلا تربى على تذوق الفن والثقافة من أكثر الأماكن إقبالاً من طرف المواطن والنهل مما يحملانه من فيض معرفي ومضامين تربوية تخدم الإنسان في إنسانية وترقية إلى معالم السمو وحب الاستكشاف والإنتا من نعومة فكر المتعلم وعلى الأطر التربوية أن تولي أهتمامها بالجانب الثقافي والفني وإعادة ترميم ما أفسدته السلطة الرقمية وما أنتجته من ثقافة رذيلة تخرب الذوق والأخلاق وتفسد الوعي الفكري والإبداعي.

إن المدرسة هي أكثر الأماكن اتساعاً لتربية المواطن لكن الأطر المتحكمة ضيقة التفعيل وصارمة في التطير اننا في زمن وفرة المعرفة أما طرق إيجادها فهي سهلة يسيرة لم تعد بتلك الصعوبة التي كانت تضفي لذة على القراءة والبحث ومعانقة العناء للوصول إليها أننا في زمن سحري حيث البعيد أصبح قريباً والقريب أصبح بعيداً بضغطة زر كل شيء يصبح مباحاً لكن في المقابل نجد أن هذا الزخم لا يصنع إنساناً بل شبيه إنسان ولا يصنع ثقافة تتطبع في الوجدان، بل يصنع ثقافات عابرة لا تعمر إلا قليلاً ولا يصنع فناً بل يعلم فن الاستهلاك المفرط ولا يصنع دهشة، بل يسعى لقتلها ولكيلا أكون جاحداً في حق التكنولوجيا لا ننكر أن لها منافع كثيرة تفوق الوصف لكن إثمها على الانسانية أكثر

من نفعها وخاصة إذا كانت بطريقة غير ممنهجة والاستفادة فقط من جانبها السلبي المغري وكما جاء في الإنجيل ((ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداء من نفسه))[٨] وسأختم بالمثل الجميل الآتي ((علموا أولادكم الفن والفن سيعلمهم كل شيء)).

الهوامش:

١. بلفايد ، اماريو ، ٢٠١٧.
٢. بنكراد ، ٢٠١٥.
٣. بن مالك ، نبي،، ١٩٨٦.
٤. بنكراد ، مسالك المعنى دراسات في الأنسان الثقافية،٢٠١٥.
* المخيال :- هو عبارة عن مخزن من الصور والتمثلات والرموز والحكايات والاساطير التي تشكلت تاريخياً في الذاكرة الجماعية أو في الذهن كنتيجة لعملية التأويل التي تحاول بها جماعة ما رسم واقعها الداخلي او واقعها مع الاخر .
* سلهام : - هو عبارة عن لبساس فولكلوري تقليدي يعبر عن ثقافة الشعوب ومن خلاله يمكن التمييز بين شعب وآخر.
٥. عفيفي محمد ، ١٩٧٠.
٦. عنايات ، يوسف ،١٩٧٥.
٧.نظمي ، لوقا ، ١٩٧٨.
* دمقرطة :- هي الانتقال الى نظام اكثر ديمقراطية .
* العقل الجمعي :- ظاهرة نفسية اجتماعية تفترض فيها الجماهير أن تصرف الجماعة في حالات معينة وموقفها تجاه حدث ما يعكس سلوكاً صحيحاً.
٨. إنجيل متى.

المصادر:

١. إنجيل متى، هو اول كتاب من العهد الجديد، وواحد من ثلاثة من الاناجيل الازائية ،معظم العلماء يعتقدون انه قد تم كتابته بين سنة٨٠ و ٩٠ ميلادي ، Luz2005 صفحة ٥٠-٢٤٩.

٢. بلقايد اماريو، سوسيولوجيا الفن ،مدخل القراءة اسهامات بيير بورديو ،الادب والفن ٢٠١٧.

٣. بن، نبي مالك ،مشكلة الثقافة ،ترجمة عبد الصبور شاهين ،سوريا دمشق ،دار الفكر ١٩٨٦.

٤. سعيد بنكراد ، مسالك المعنى دراسات في الأنسان الثقافية، سلسلة شرفات ، مطبعة بني ازناس سلا ٢٠١٥

٥. عبودة عبد الكريم، الحركة على المسرح بين الدلالة النظرية والرؤيا التطبيقية، دار الفنون والادب للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الاولى ٢٠١٤.

٦. يوسف عنايات، مفهوم الخبرة الجمالية عند الفلاسفة وعلماء الجمال، تصنيفها وعلاقتها بالفرد ،صحيفة التربية العدد ٢٦ . ١٩٧٥

٧. نظمي لوقا ، سيمفونية الرعاة ،دار الهلال ، القاهرة ١٩٧٨.